

المحاضرة السادسة عشر في مادة علوم الحديث

=====

أهمية علم الجرح والتعديل

لقد منَّ الله عزَّ وجلَّ على الأمة الإسلامية بنعم كثيرة لا تُحصى ولا تُعدّ، ومن تلك النعم أنه جعلها خير الأمم أُخْرِجَت للناس، ودينها خاتم الأديان وأكملها، ونبينا خاتم الأنبياء وسيدهم ، كما أنه سبحانه وتعالى تكفل بحفظ القرآن الكريم من التحريف والتبديل ((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)) (الحجر: ٩) والذِّكْرُ هنا يعُمُّ القرآن والسنة لأنَّ السنة أيضًا وحي مُنَزَّل من الله تعالى ، وقال تعالى (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) النجم: ٣ - ٤ ، وهي المبينة للقرآن، وقد سمّاها الله - تعالى - ذِكْرًا؛ فقال تعالى ((وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)) النحل: ٤٤

بيد أنه لا يمكن العمل بالقرآن بمعزل عن السنة، وهذا الذي جعل مكحولاً يقول:

القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن .

فالسنة هي المبينة لمراد الله عزَّ وجلَّ من مجملات كتابه ، والدالّة على حدوده، والميسرة له، والهادية إلى الصراط المستقيم، صراط الله الذي من اتبعها اهتدى، ومن سلك غير سبيلها ضلَّ وغوى، وولاه الله ما تولى وإن المؤدي الى حفظ السنة هو : علم الجرح والتعديل الذي يختصُّ بالرواية غالباً ويعد من أدقِّ علوم السنة وأجلّها قدرًا؛ لأنَّ المعول عليه في قبول السنة أو ردّها ، بل هو السند بشكل أساسي الذي يتكوّن بمجموعة من الرجال ، الذين يتناقلون الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن هذا القبول أو الردُّ دون قواعد ولا ضوابط؛ بل إنَّ علماء هذا الفنِّ قد تتبعوا تواريخ الرجال، ووقفوا على أخبارهم بدقّة، وكانوا متجرّدين للحقّ ، فمن وجدوه عدلاً عدّلوه ، ومن ثبت لهم أنه مجروح جرحوه، ولم يراعوا في جميع ذلك أيّة اعتبارات شخصية، اللهمَّ إلاّ الإخلاص لله تعالى، والاحتياط لحفظ سنّة النبي صلى الله عليه وسلم.

اما مفهوم علم الجرح والتعديل: فهو علم يبحث فيه عن جرح الرواية وتعديلهم

بألفاظ مخصوصة وعن مراتب تلك الألفاظ .

نشأته

نشأ علم الجرح والتعديل مع نشأة الرواية، فإن النبي ﷺ ، هو أول من جرح وعدّل، وعلى ذلك المنهج سار المحدثون فطلبوا الإسناد وقوّموا الرواة، وعدّلوا في ذلك كل العدل، فأعطوا كل راوٍ ما يستحقه من أوصاف الضبط والعدالة دون محاباة، وضربوا في ذلك أروع الأمثلة في الاحتساب والتجرد.

ويُعتبر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هم أول من تكلم في علوم السنة عموماً، وعلم الجرح والتعديل خاصّة، فكانوا يتّخذون الضوابط اللازمة لصيانة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أحدهم يسافر شهراً لسماع حديث رسول الله وكان أحدهم يصحب النبي صلى الله عليه وسلم على ملء بطنه، حتى يجمع ما استطاع من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا يتثبتون فيما يُنقل إليهم، فلا يقبلونه إلاّ بشاهد.

وكان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - أول من فتش عن الرجال من الصحابة فقد ثبت عن قبيصة بن ذؤيب ، أنه قال : جاءت الجدة إلى أبي بكر الصديق ، تسأله ميراثها ؟ فقال : ما لك في كتاب الله تعالى شيء ، وما علمت لك في سنة نبي الله - صلى الله عليه وسلم - شيئاً ، فارجعي حتى أسأل الناس ، فسأل الناس ، فقال المغيرة بن شعبة ، " حضرت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أعطاهما السدس " ، فقال أبو بكر : هل معك غيرك ؟ فقام محمد بن مسلمة ، فقال : مثل ما قال المغيرة بن شعبة ، فأنفذه لها أبو بكر ثم كان بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ثم بعده علي بن أبي طالب عليه السلام - فهلمّ جرّاً، وهذا يدلُّ دلالة واضحة على أنّ التحري ، وهناك من صغار الصحابة أيضاً من جرح عدداً من الرواة لمّا ظهر أصحاب الأهواء، منهم عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما، فقد روى مسلم بإسناده إلى مجاهد أنّه قال: "جاء بشير بن كعب العدوي إلى ابن عباس، فجعل يُحدّث، ويقول: قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فجعل ابن عباس لا يَأْذَنُ لحديثه، ولا ينظر إليه، فقال (بشير): يا ابن عبّاس، ما لي لا أراك تسمع لحديثي؟ أحدثك عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ولا تسمع! فقال ابن عباس: "إنّا كنّا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول: قال رسول الله - صَلَّى اللهُ

عليه وسلّم - ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب
والذلّول؛ لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف "

وأهل الحديث عندما تكلموا في الرجال؛ بحثوا في صفتين:

١ - العدالة.

٢ - الضبط.

والعدالة: مأكدة تحمل المرء على ملازمة التقوى، ومجانبة الفسق، وحوارم المروعة .

وتعرف العدالة بأمرين:

١ - الاستفاضة والشهرة: كأن يشتهر الراوي بطلب العلم، والاجتهاد فيه، مع

الأمانة والثقة، بحيث يشيع الثناء عليه.

٢ - تنصيب أحد العلماء على عدالته : ويكفي تعديل الإمام الواحد على القول

الراجح، قياساً على قبول خبر الثقة عند تفرده، بشرط أن يكون هذا العالم غير

متساهل في التعديل، أو التوثيق، وألا يعارض توثيقه قول إمام آخر؛ فعندئذٍ يُطلب

الترجيح بضوابط التعارض .